إدوارد سعيد وفلسطين:
عن الصراع والدولة وحقّ العودة

سماح إدريس*

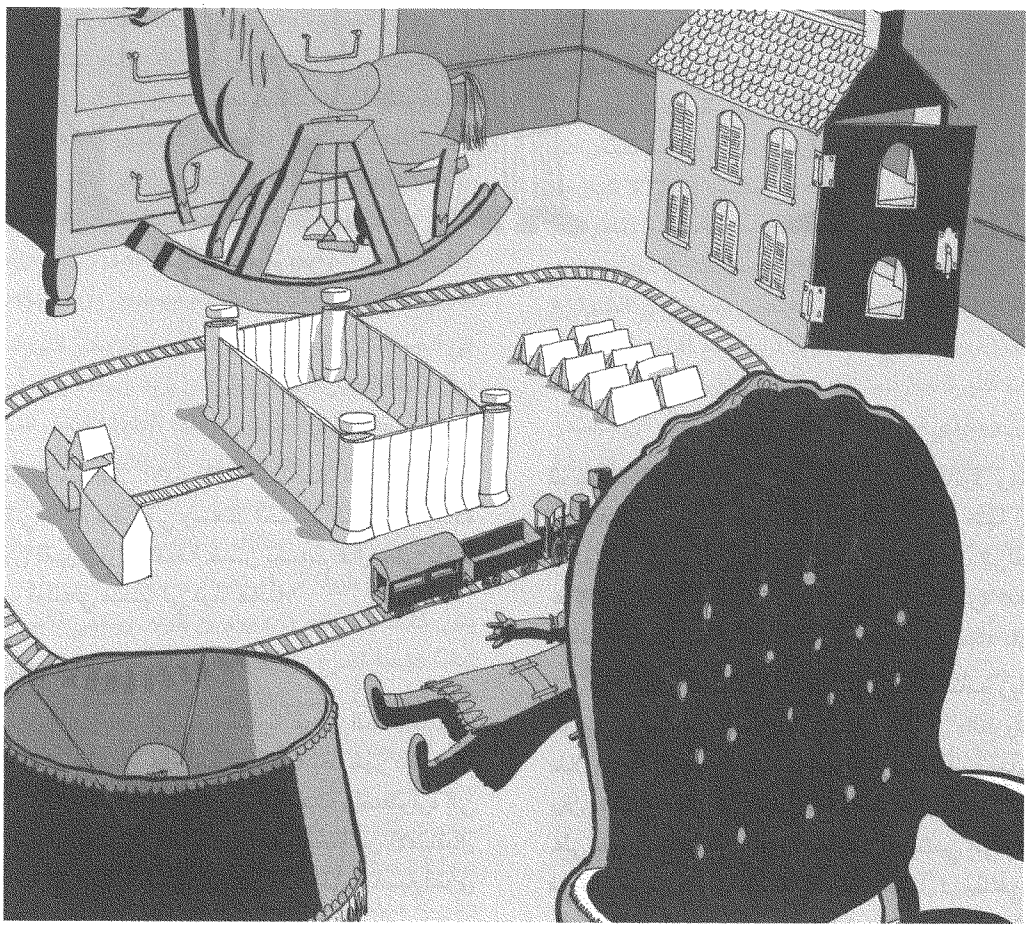

لا مبالغةَ في القول إنّ فلسطين تقع في قلب أعمال إدوارد سعيد بعد هزيمة ١٩٦٧. ففي الكارثة التي حلّت بها منذ العام ١٩٤٨ تجسيدٌ وحشيٌّ لا لما اعتبره ـ بحقّ ـ أطولَ احتلالٍ متواصلٍ منذ منتصف القرن العشرين فحسب، بل تجسيدٌ أيضاً لجملةٍ من الهموم التي احتلّت فكرَه طوال حياته. ومن هذه الهموم: تبريرُ الظلم بذريعة «الرسالة التحضيريّة»، وانتقاصُ الإمبرياليّة من ثقافة السكّان المحليّة، وتبرئةُ الغرب من محرقة اليهود الغربيين برمي تبعاتها على شعبٍ آخرَ اعتُبرَ «دونيّاً وعائقاً أمام مسيرة الإنسانيّة»، واستخدامُ «زنجيّ السيّد الأبيض» (أي السلطة الفلسطينيّة) في تنفيذ السياسات الاستعماريّة لقاءَ «فتاتيتَ» بانتاستونيّة.

* ـ كلمة رئيس تحرير الآداب في ندوةٍ تكريميّة لإدوارد سعيد في مهرجان جبلة (سوريا) منتصف تموز (يوليو)، شارك فيها فيصل درّاج وأدارها ثائر ديب.

أولاً: «فكرة فلسطين» في سياق السرديّات التحرريّة الكبرى

انطلاقًا من كلّ ما تقدّم، فقد اعتَبَر سعيد أنّ في اجتراح حلولٍ عادلةٍ لكارثة شعب فلسطين تمثيلاً أخلاقيّاً عاليَ النبرة، يُنْصف شعبًا مظلومًا اليومَ، من دون أن يأتيَ ذلك على حساب أحفادِ غزاةٍ تعرّضوا للظلم سابقًا. وبكلمة، فإنّ ما سمّاه سعيد «فكرة فلسطين» نموذجٌ صارخٌ للسرديّة التحرريّة الكبرى التي قدّمها في عمليْه البارزيْن، **الاستشراق والثقافة والإمبرياليّة** ـ وهي سرديّةٌ سَطعتْ فيها أسماء كفانون وإقبال أحمد على سبيل المثال لا الحصر. ومن هنا فإنّ على قارئ أعمال سعيد «الفلسطينيّة» ـ وعلى رأسها **المسألةُ الفلسطينيّة** والكتبُ التي ضمّت مقالاتٍ ومقابلاتٍ أُجريتْ معه (مثل **سياسات الحرمان، ونهاية عمليّة السلام، والسلطة والسياسة والثقافة، وإسرائيل، العراق، الولايات المتحدة**) ـ أن يقرأها وعينُه على ذيْنكَ العمليْن البارزيْن اللذين يُعتبران من أهمّ الأعمال الفكريّة في القرن الأخير.

تَركّز عملُ سعيد، في ما يخصّ قضيّةَ فلسطين، على مخاطبة الجمهور الغربيّ من أجل توضيح صورة الظلم الصهيونيّ، وارتباطِه بالثقافة الغربيّة في تيّارها السائد، وتعريفِ الغربيين بآمال السكّان الفلسطينيين الأصليين وتاريخِهم وثقافتهم. ولكنّ سعيدًا يمّم، قبيْل توقيع اتفاقيّات أوسلو وبعيْده، شطرَ الجمهور العربيّ. فتدفّقتْ مقالاتُه على المنابر العربيّة بين عاميْ ١٩٩٥ وآخرِ شهرٍ من حياته في أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٣، حتى تجاوزتْ مئةً وعشرين مقالاً في جريدة **الحياة** وحدها (ناهيكم بالمحاضرات في الجامعات العربيّة كالجامعتين الأميركيّتين في بيروت والقاهرة).[١] وعلى تلك المقالات والمقابلات ستنصبّ مداخلتي الآن.

ثانيًا: مبادئُ عامّةٌ لحلّ الصراع على فلسطين

لكنْ قبل الحديث عن رؤية سعيد إلى حلّ الصراع على فلسطين، وعن نظرته إلى شكل الدولة المرجوّة هناك، ينبغي التنبيهُ إلى ثلاثة مبادئ تمسّك بها بشكلٍ شبهِ حاسم على امتداد مسيرته الفكريّة:

أ ـ عدم إيمانه بإمكانيّة زوال إسرائيل؛[٢] بل إنّه يؤمن «بلاأخلاقيّة» طرد أيّ شعبٍ كان. يقول في هذا الصدد: «علينا أن نُوضحَ للإسرائيليين، بما لا يقبل الشكّ، أنّ كفاحَنا لا يَهدف إلى طردهم من الشرق الأوسط... لكنْ يمْكننا التأكيدُ لهم، كما حرص مانديلا دومًا على التأكيد للبيض، أننا نريد لهم البقاءَ والمشاركةَ معنا في الأرض على أساس المساواة.»[٣] ويقول في مناسبةٍ أخرى: «لا أريد رؤيةَ رحيل مزيدٍ من الناس،» مضيفًا أنّ من حقّ الإسرائيليين البقاءَ شرطَ التخلّي عن إيديولوجيّتهم «التي تنْكر حقوقَ الآخرين.»[٤]

ب ـ المبدأ الثاني الذي تمسّك به سعيد هو ضرورةُ اعتراف إسرائيل بجرائمها وتهجيرها.[٥] ويقول في حواره مع آري شافيت: «لا يمْكن أن تكون هناك نهايةٌ للصراع إلى أن تعترف إسرائيلُ بمسؤوليّتها الأخلاقيّة عمّا فعلته بالشعب الفلسطينيّ... بالاحتلال... بتدمير المجتمع [الفلسطينيّ...] بالمعاناة على مدى الأعوام الاثنين والخمسين الأخيرة [صارت اليوم واحدًا وستّين]، بما فيها مجازرُ مخيّميْ صبرا وشاتيلا.»[٦]

ج ـ أما المبدأ الثالث فهو تشبّثُ سعيد بحقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين. يقول في الحوار نفسه عام ٢٠٠٠: «لستُ متأكّدًا من عدد الذين سيريدون العودةَ، لكنني أعتقد أنه يجب أن يكون **لهم الحقُّ في العودة**.»[٧] (الجدير ذكره أنّ سعيدًا، للأسف، اقترح أحيانًا، كما سنرى، «تشذيبَ» هذا الحقّ، أسوةً بتشذيب «قانون العودة» الإسرائيليّ).

ثالثًا: شكلُ الدولة المرجوّة

تبدّلتْ نظرةُ سعيد إلى شكل الدولة التي ينبغي أن تُبنى على أنقاض الاحتلال والتهجير والعنصريّة الصهيونيّة.

أ ـ أوّلَ الأمر، كان سعيد مناصرًا للدولة العلمانيّة الديمقراطيّة على كامل فلسطين التاريخيّة. وهذا ما كان عليه أيضًا موقفُ منظّمة التحرير الفلسطينيّة (م.ت.ف) قبل العام ١٩٧٤، أيْ قبل إعلان ما يسمّى «البرنامجَ المرحليّ» للمنظّمة المذكورة.

ب ـ لكنْ منذ أواسط السبعينيّات صار سعيد منافحًا بشدة عن الحلّ القائم على دولتين فلسطينيّة وإسرائيليّة متجاورتين.[٨] وفي العام ١٩٨٨ قام في الجزائر بترجمة إعلان الدولة الفلسطينيّة (على حدود ٦٧) إلى الإنكليزيّة؛ والأرجحُ أنه شارك في صياغته إلى جانب محمود درويش. وكان قبل ذلك بعامين

---

١ ـ كلُّ الإحالات على جريدة **الحياة** في هذه المداخلة موجودة في كتاب **نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢).

٢ ـ **الحياة**، ١٩٩٨/٢/١٢.

٣ ـ **الحياة**، ١٩٩٨/٦/٩.

٤ ـ حوار مع آري شافيت، **هآرتس**، ٢٠٠٠، موجود ضمن كتاب: **السلطة والسياسة والثقافة**، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٨)، ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

٥ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/٩/٢٥.

٦ ـ ٧ ـ مصدر مذكور سابقًا.

٨ ـ راجع مثلاً حواره مع ماثيو ستيفنسون في **The Progressive**، ١٩٨٧، وذلك ضمن كتاب **السلطة والسياسة والثقافة**، مرجع مذكور، ص ٣٣٨.

قد أعلن أنه يقْبل بسيادة إسرائيل على ما تبقّى من فلسطين لأنه يَعتبر إسرائيلَ «واقعًا» ولأنها «نتيجةٌ للتاريخ المأسويّ جدّاً للشعب اليهوديّ.»[١] أما شكل الدولتين الذي ارتآه فهو أن تكُونَ لكلٍّ منهما حقوقٌ متساويةٌ لمواطنيهما، ولكنْ في «تفاعلٍ، بحيث يمْكن في النهاية خلقُ وضعٍ شبيهٍ بالكانتونات السويسريّة...»[٢]

ج ـ بيْد أنّ إدوارد سعيد، بعد توقيع أوسلو عام ١٩٩٣، صار مؤمنًا بأنّ «الحلّ» القائم على دولتين فلسطينيّة وإسرائيليّة قد انتهى عمليّاً بسبب «توغّل الحركة الاستيطانيّة والحكومة الإسرائيليّة والجيش الإسرائيليّ في الحياة الفلسطينيّة» إلى درجة استحالة الفصل بين الفلسطينيين والإسرائيليين. ولذلك راح يؤكّد منذ ذلك التاريخ أنّ «الاستنتاجَ الوحيدَ هو ضرورةُ إيجاد وسيلة كي يعيش الشعبان معًا متساويْن في دولةٍ واحدة ـ لا كأسيادٍ وعبيدٍ كما هو الحالُ الآن.»[٣] بل بات يعتقد أنه حتى لو حُلّت مشكلةُ الطرق الالتفافيّة، وخُفّض عددُ المستوطنات، فلا إمكانيّةَ لإقامة دولة فلسطينيّة، لأنّ ما سيتبقّى من أرضٍ لتشييد هذه الدولة لن يتجاوز «النتاتيفَ الصغيرة.»[٤] يضاف إلى ذلك أنّ سعيدًا أضحى في هذه المرحلة الأخيرة يرى أنّ الحلّ القائم على دولتين يتجاهل فلسطينيّ ٤٨ الذين سيبقون مواطنين «من الدرجة الثانية» في دولة إسرائيل. والتحدّي إذًا، كما صار يعتقد، هو «إيجادُ طريقةٍ سلميّةٍ للتعايش، لا كأطرافٍ يهوديّةٍ ومسلمةٍ ومسيحيّةٍ محْتربة، بل كمواطنين متساوين على الأرض نفسها.»[٥] وتدريجيّاً راح إدوارد يتحدّث هنا عن مفهوم «المواطَنة،» «وهو مفهومٌ لا يستند إلى العِرق والدين بل إلى عدالةٍ متكافئةٍ يكْفلها الدستورُ لكلّ مواطن،» بديلاً من «التطهير العرقيّ، سواءٌ نفّذه الصربُ أو الصهاينةُ أو حماس» (يستشهد في هذا الصدد بعزمي بشارة).[٦] وهذا الحلّ يمْكن في حسبانه أن ينطبقَ على كامل فلسطين التاريخيّة، في حال تطوُّر النضال الفلسطينيّ، وانجداله مع نضال «الإسرائيليين الشجعان» في الداخل والخارج، من أجل «تحوّلٍ إسرائيل تدريجيّاً» على النمط الذي تَحوّل فيه جنوبُ أفريقيا من حال الفصل العنصريّ (الأپارتهايد) إلى حال المواطَنة. ومع ذلك فإنه ينبغي القولُ إنّ سعيدًا لم يَجْلُ الفوارقَ بين «الدولة الديمقراطيّة العلمانيّة» (أو دولة المواطنة) وبين ما سمّاه «الدولةَ الثنائيّةَ القوميّة،» وإنْ طَلّقَ خيارَ الدولتين.[٧]

رابعًا: النقد الداخليّ شرطًا للتضامن الحقيقيّ

بعيْد إعلان الدولة الفلسطينية عام ١٩٨٨، بدأ سعيد نقدًا خافتًا لـ م.ت.ف. ولعلّ البادرة العلنيّة الأولى لهذا النقد كانت في مقابلة أجراها معه هشام ملحم في صحيفة **الفجر** (في كراتشي) عام ١٩٩٠، حيث انصبّ نقدُ سعيد آنذاك على أداء المنظّمة في الساحة الأميركيّة. إنّ م.ت.ف، في رأي سعيد، لا تحاورُ إلاّ الموالين لإسرائيل هناك، فضلاً عن «سماسرةٍ ووسطاءَ بين النضال الفلسطينيّ والشعب الأميركيّ،» بدلاً من الذهاب إلى جامعاتٍ ونقاباتٍ و«قطاعاتٍ عديدةٍ تدْعمنا كليّاً.»[٨] وفي غير مكانٍ يتّهم سعيد م.ت.ف بأنها لا تعْرف المجتمعَ الأميركيّ، ولا حملة إعلاميّةً مبرمجةً لها هناك، ويؤكّد أنّ الحوار بين المنظّمة وأميركا يجري «خلف أبواب مغلقة.» وشيئًا فشيئًا راح سعيد يطوّر نقدَه للمنظمة وياسر عرفات والسلطة الفلسطينيّة بعد أوسلو، مهتديًا بمبدإٍ لخّصه عام ١٩٩٥ بالعبارات التالية:

«لا معنى للتضامن مع القضيّة الفلسطينيّة قبل أن يسْبقَه النقدُ ويرافقَه. إنّ الكلّ معرّضٌ للخطإ، حتى ياسر عرفات. وتزداد أهميّةُ الدور الذي يلعبه النقدُ والتذكيرُ بالنواقص في غياب نظامٍ قانونيّ ودستوريّ متكامل [في الضفّة وغزّة].»[٩]

وهو في سبيل نقده الداخليّ هذا يَرفض ما يسمّيه «الغلوَّ في الوطنيّة،»[١٠] ويسْخر ممّن يدين نقدَه بذريعة «الواقعيّة والبراغماتيّة،» مؤكّدًا أنّ هذه الذريعة تَستهْدف «ضمانَ بقاء السلطة [الفلسطينيّة] بعيدةً عن أيّ مساءلة.»[١١] كما يرفض «الواقعيين» الذين يَعيبون عليه نقدَه بذريعة أنه «موجودٌ في نيويورك لا غزّة،» وكأنما الوجودُ في غزة يمثّل «ضمانًا لقول الحقيقة أو لإدراك الواقع،» أو كأنّ «معظمَ الشعب الفلسطينيّ الذي تناسته عمليّةُ السلام الحاليّة لا يعيش... خارج فلسطين»![١٢]

---

١ ـ حوار مع تيموثي آبلاي، في **The Globe and Mail**، ١٩٨٦، وذلك ضمن الكتاب السابق، ص ٣١٣.

٢ ـ حوار مع معين ربّاني، **Journal of Palestine Studies**، واشنطن، ١٩٩٥، وذلك ضمن الكتاب السابق، ص ٤٤١.

٣ ـ ضمن الكتاب السابق، ص ٤٦٩.

٤ ـ حوار مع أريك بلايك، **Star Tribune**، ١٩٩٩، ضمن الكتاب السابق، ص ٤٧٠.

٥ ـ **الحياة**، ١٩٩٦/١٠/١.

٦ ـ **الحياة**، ١٩٩٨/٦/٣٠.

٧ ـ **الحياة**، ١٩٩٩/٢/١.

٨ ـ حوار مع هشام ملحم، الفجر، كراتشي، ١٩٩٠، ضمن **السلطة والسياسة والثقافة**، مرجع مذكور.

٩ ـ **الحياة**، ١٩٩٥/١١/٨.

١٠ ـ **الحياة**، ١٩٩٦/١٠/٢٩.

١١ ـ **الحياة**، ١٩٩٥/١١/٨.

١٢ ـ **الحياة**، ١٩٩٥/١٠/١.

هكذا بدأ سعيد نقدَه للأداء الرسميّ الفلسطينيّ بالتساوق مع نقده للصهيونيّة والولايات المتحدة (والاستبداد العربيّ). ومن أبرز مظاهر نقده لسلطة عرفات:[١] «بلطجةُ» المحيطين بها، و«الجيشُ الجرّارُ» من بيروقراطيّيها غير الأكفاء، وفسادُها، واعتمادُها الخصخصةَ «من دون هيئات مراقبة»[٢] بحيث تكون من نصيب الأثرياء وأنصار عرفات وحدهم، وسرقتُها أموالَ المانحين الدوليين، واحتكارُ بعض مسؤوليها للسلع وموادِّ البناء،[٣] واعتقالُها الصحافيين الناقدين لعرفات (أمثال ماهر العلمي وبسّام عيد)،[٤] والتدهورُ الاقتصاديّ والبطالةُ في مناطقها، وكثرةُ أجهزتها الأمنيّة مع ما تستتبعُه من أكلافٍ باهظةٍ على الخزينة، وعدمُ كفاءة فريقها المفاوض في أوسلو، واعتمادُها على أميركا للحصول على أيّ شيء. وتباعًا تكرّرتْ دعواتُ سعيد إلى الإصلاح الداخليّ الفلسطينيّ، العاجلِ والمتوسّطِ المدى والبعيد المدى، نذْكر منها ما يأتي:

من أبرز مظاهر نقدِه لسلطة عرفات: «بلطجة» المحيطين بها، و«الجيش الجرّار» من بيروقراطيّيها غير الأكفاء، وفسادها، وكثرة أجهزتها الأمنيّة...

١ ـ دعوته إلى وقف عمل الفلسطينيين في المستوطنات، وذلك عبر إنشاء صندوقٍ فلسطينيّ أو عربيّ لمساعدة العاطلين عن العمل.[٥]

٢ ـ مناشدته المفاوضَ الفلسطينيّ عدمَ التفريط بالقضيّة، بل الاقتداءُ على الأقلّ بالمفاوض السوريّ: يقول في هذا الصدد: «كلمةٌ أخيرةٌ لمؤيّدي عرفات الذين يواصلون القولَ إننا لا نملك خيارًا آخرَ: ألا يمثّل الخيارُ السوريّ، أي القبولُ بفكرة السلام والمفاوضات مع التمسّك بالمبادئ والأولويّات الوطنيّة، بديلاً آخرَ؟»[٦]

٣ ـ مطالبته فلسطينيّي الشتات بتنظيم أنفسهم وإجراءِ استفتاءٍ في ما بينهم لأنّ سلطة عرفات «مشغولةٌ» بنفسها وبالضفّة وغزّة («٨٠٪ [من الفلسطينيين] لا يَشْعرون بالمشاركة بل هم مستثنَوْن» كما يقول). وفي هذا المجال يشدّد سعيد على وجوب إجراء إحصاءٍ دقيقٍ لفلسطينيي الشتات، ولممتلكاتهم التي خسروها، وللقرى المدمَّرة.[٧]

٤ ـ وارتباطًا بهذا، يطالب سعيد بإنشاء مكتب خدماتٍ إستراتيجيّةٍ لتناول قضايا الماء والحدود وغيرِ ذلك لأنّ إسرائيل هي التي تحتكر المعلوماتِ عنها. ويركّز في هذا الخصوص على مِلفّ التعويضات: فالعراق يطالَبُ بدفع تعويضات عن سبعة شهور من احتلاله الكويتَ، «أما نحن فلم تقم هيئةٌ بجمع المعلومات» عنا حتى الآن!

٥ ـ مطالبته فصائلَ المقاومة بنبذ الكفاح المسلّح وما يسمّيه «العمليّات الانتحاريّة»،[٨] وذلك انطلاقًا من لاجدوى العنف ولاأخلاقيّته كما يزعم.

٦ ـ إلحاحه على بناء الذات بدلاً من الاعتماد على الولايات المتحدة، التي يشْهد تاريخُها كلُّه على مساندتها القمعَ والرجعيّةَ، بحسب قوله. ويركّز سعيد في هذا المجال على ضرورة تمويل بنْية التعليم الجامعيّ بكاملها، وعلى إنشاءِ مكتبةٍ وطنيّةٍ فلسطينيّة.[٩] أما في الموضوع الاقتصاديّ فيأسف سعيد لاعتماد السلطة الفلسطينيّة على الأميركيين، ولاحتفاظِها بمؤسسة آرثر أندرسون الاستشاريّة الأميركيّة لتنظيم حملة إعلانات بهدف جذب الاستثمارات.[١٠]

٧ ـ مناشدته الفلسطينيين والعربَ دراسةَ الهولوكوست (المحرقة النازيّة) بصورةٍ جدّية، ودراسةَ أثرِها في «الضمير اليهوديّ والضمير الغربيّ،» على الرغم من استغلال إسرائيل لها من أجل تحقيق «أهداف سياسيّة.»[١١] فبحسب سعيد لا يمْكن إنكارُ العلاقة بين المحرقة والكارثة الفلسطينيّة: فتلك أدّت إلى هذه، والمطلوبُ الاعترافُ بالتجربتين معًا. نعم، كان يمْكن إيواءُ اليهود الأوروبيين في أميركا أو كندا أو إنكلترا؛ وصحيحٌ أنّ البريطانيين مسؤولون عن السماح لهم بالمجيء إلى فلسطين؛[١٢] ولكنْ، يقول سعيد، «لا أريد رؤيةَ رحيل المزيد من الناس...»

---

١ ـ **الحياة**، ١٩٩٥/١٠/١.
٢ ـ **الحياة**، ١٩٩٥/١٢/١٢.
٣ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/٦/١٩.
٤ ـ **الحياة**، ١٩٩٦/١١/١٩.
٥ ـ **الحياة**، ٩٨/٤/١٠، و٢٠٠٠/١٢/١٢.
٦ ـ **الحياة**، ١٩٩٥/١٠/١.
٧ ـ **الحياة**، ٢٠٠٠/٢/١١.
٨ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/١٠/٢١.
٩ ـ **الحياة**، ١٩٩٨/١١/١٢.
١٠ ـ **الحياة**، ٢٠٠٠/٢/١١.
١١ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/١١/٥.
١٢ ـ حوار مع آري شافيت، مصدر مذكور سابقًا.

٨ ـ دراسة تاريخنا، مثل ما حدث لنا في دير ياسين. وهو ما يسمّيه سعيد أحيانًا «تغذيةَ الذاكرة الجماعيّة،»[١] أو «العودةَ إلى الذات،» بمعنى العودة إلى التاريخ لفهم ما حدث بالضبط ولماذا ومَن نحن. وهو في هذا يستدعي إلَى أذهاننا، ربّما، مشروعَ قسطنطين زريق الفكريّ لفهم «معنى النكبة،» ومساعيَ الدكتور جورج حبش (النبيلةَ لكن المتعثّرة) إلى إنشاء «مركز الغد» لدراسة أسباب هزيمتنا وسبلِ القيامة.

٩ ـ إصرار سعيد الدؤوب على إنشاء إعلام أخلاقيّ يُظْهر للعالم ما ارتُكب ضدّنا، «وهذه، كما أرى الآن، هي المهمّةُ الجوهريّةُ التي تواجهنا كشعب حاليّاً.»[٢] «ففي الأساس يجب أن نَكسبَ صراعَنا مع الصهيونيّة أولاً على المستوى الأخلاقيّ... آخذين في عين الاعتبار أننا سنكون دائمًا أضعفَ عسكريّاً واقتصاديّاً من إسرائيل ومؤيّديها.» وقد تبيّنتْ له أهميّةُ المنحى الأخلاقيّ في النضال، أوّلَ ما تبيّنتْ، في زيارته إلى جنوب أفريقيا حين قال له والتر سيسولو: «هُزمنا في الثمانينيّات... وأدركْنا وقتَها أنّ أملَنا الوحيدَ هو التركيزُ على الساحة الدوليّة... كلُّ انتصار أحرزناه في لندن أو غلاسكو... أو برلين أو استوكهولم أعطى الشعبَ في الداخل شعورًا بالأمل، وجَدّد عزمَه على مواصلة الكفاح. وبمرور الوقت استطعنا فرضَ العزل الأخلاقيّ على النظام...»[٣]

١٠ ـ تركيزه على وجوب بناء صوتٍ فلسطينيّ فعّالٍ في أميركا، بديلاً من عرفات الذي لا يعرف التعاملَ مع الصحافة الأميركيّة، ولا يتحدّث الإنكليزيّةَ كما يجب، ولا مستشارين صحافيين دائمين له على صلة بالصحافة.[٤]

١١ ـ دعوته الأكاديميين والخبراءَ إلى الامتناع عن زيارة إسرائيل «إلاّ إذا سعوا إلى زيارة جامعاتٍ ومعاهدَ فلسطينيّةٍ وتقديم الدعم لها.»[٥]

١٢ ـ مطالبته الفلسطينيين بالاتصال بـ «الإسرائيليين الشجعان» خارج الأقنية الرسميّة، أمثال إيلان بابيه وإسرائيل شاحاك، ودعوته إيّاهم إلى القيام بنضالاتٍ مشتركةٍ من قبيل «إطلاق حملةٍ دوليّةٍ ضدّ المستوطنات» أو «مسيراتٍ مختلطةٍ ضدّ مستوطنات رئيسة.»[٦] فأملُنا الأفضلُ، كما يكرّر، هو النضالُ المشتركُ مع اليهود الإسرائيليين «كي نشكّل منهجًا للتعايش بأقلّ ما يمْكن من الإكراه ـ إمّا من خلال كانتوناتٍ على النمط السويسريّ أو بطرقٍ أخرى.» وهو في هذا الصدد يسخّف مقاطعةَ «كلّ شيء إسرائيليّ،» أيّاً كانت هويّتُه السياسيّة.[٧]

خامسًا: في نقد المعلّم إدوارد سعيد

علّمنا العزيز إدوارد أنّ النقد هو من أهمّ الأمور التي نمْلكها في حياتنا العقليّة. ومن درسه البليغ هذا، سلّحَنا بما نستطيع أن ننتقدَه به، بلا خوفٍ من «اغتياب.» ومن نقدنا له نورد الملاحظاتِ السريعة الآتية:

١ ـ قد لا نوافقه على اعتباره أنّ الأخلاقَ هي «الميدانُ الوحيدُ لصراعنا» ضدّ إسرائيل،[٨] رغم إيماننا بأهمّيّة فضح إسرائيل أخلاقيّاً في العالم.

٢ ـ وقد لا نتبنّى اعتبارَه كلَّ أشكال الكفاح المسلّح غيرَ ذاتِ جدوى؛ ذلك أنّ ما فشِل قد يكون نمطًا **محدّدًا** من ذلك الكفاح. وبدلاً من إدانة المبدإ في ذاته، فإننا نقترح تطويرَ نموذج أفضلَ للكفاح المسلّح، نظريٍّ وميدانيٍّ، يستند إلى بعض التجارب العسكريّة الناجحة، في الجزائر ولبنان مثلاً، وربما في فلسطين نفسها (تجربة غيفارا غزّة قبل بضعة عقود). وعوضًا من أن يقتصر الكفاحُ على الميدان الأخلاقيّ وحده، فلعلّ الأنجعَ ربطُه بالكفاح الاقتصاديّ (المقاطعة والنضال الشعبيّ الدوليّ من أجل سحب الاستثمارات الخارجيّة من الكيان الصهيونيّ) والنضال العسكريّ، شرطَ أن يكون هذا الأخيرُ محسوبًا بدرجةٍ أعلى ممّا تتمّ به بعضُ الهجمات العشوائيّة. وبدلاً من أن يَطمسَ الجانبُ العسكريّ كلَّ جوانب المقاومة الأخرى، فإنّ على الجوانب جميعِها (الثقافيّة والاقتصاديّة والعسكريّة) أن تتكامل.

٣ ـ على الرغم من شجب إدوارد سعيد للتفاوض الحاليّ لأنه لا يستند إلى المِلفّات الفلسطينيّة المشغولة بعناية، فإنّ في مقدورنا أن نسأله، ولو في غيبته، السؤالين البدهيّين التاليين: أيمْكن راهنًا، حيث المفاوضُ الفلسطينيُّ أضعفُ بما لا يقاس من أيّ زمنٍ مضى، أن تكون هناك مفاوضاتٌ «عادلة»؟ ألا تَفترضُ المفاوضاتُ العادلةُ ندّيْن على صعدٍ كثيرة، تتجاوز الصعيدين الأخلاقيّ والإعلاميّ؟

٤ ـ يبالغ سعيد في أثر الحملة الإعلاميّة والشعبيّة داخل «الغرب.» صحيحٌ أنّ السفارات العربيّة ومنظمةَ التحرير والسلطة الفلسطينيّة في الولايات المتحدة تقاعستْ عن واجباتها في محاربة الدعاية الصهيونيّة؛ وصحيحٌ أنّ على العرب أن يركّزوا على مجموعاتٍ أميركيّةٍ غيرِ تلك التي دأبوا على استمالتها، فيتوجّهوا من ثمّ إلى الهسپانيين والأميركيين الأفارقة وغالبيّة الكنائس غير الأصوليّة في الجنوب الأميركيّ والدوائر الأكاديميّة، بل إلى بعض يهود أميركا أنفسهم.[٩] ولكنني أجدني أمْيلُ إلى تبنّي أطروحة عزمي بشارة (مسرح المدينة، بيروت، ٢٠٠٨/٩/٨)، وهي أنّ «الغرب» لن يتغيّر ما لم

---

١ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/٤/٢٥.

٢ ـ ٣ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/٩/٢٥.

٤ ـ حوار مع منير ناصر، **Arab American News**، ١٩٩٠، ضمن كتاب **السلطة والسياسة والثقافة**، مرجع مذكور.

٥ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/٩/٢٥.

٦ ـ **الحياة**، ١٩٩٨/٦/٩.

٧ ـ **الحياة**، ١٩٩٨/٦/٢٠.

٨ ـ **الحياة**، ١٩٩٧/٩/٢٥.

٩ ـ **الحياة**، ٢٠٠١/٤/١٧.

سلّحنا إدوارد بما نستطيع أنْ ننتقدَهُ به بلا خوفٍ من اغتياب.

نُثبتْ له قدرتنا على أن نُلْحق بالعدوّ الإسرائيليّ أضرارًا جسديّةً واقتصاديّةً (فضلاً، طبعًا، عن الأضرار الأخلاقيّة والمعنويّة).[١]

٥ ـ تحدّث سعيد في كثير من الأحيان عن حلٍّ قائم على دولةٍ ثنائيّة القوميّة. فلو نحّينا جانبًا أنه لم يميّزْه (في معظم الأحيان) عن الحلّ المستند إلى بناء دولةٍ ديمقراطيّةٍ علمانيّةٍ واحدةٍ على كامل فلسطين التاريخيّة، فإنّ «الحلّ» الأولَ يثير في نفوسنا الحيرةَ كما يقول رفيقي عمر البرغوثي: إذ على أيّ فرضيّاتٍ يستند طرحُ الدولة الثنائيّة القوميّة؟ وما هي «القوميّةُ» الثانيةُ أصلاً؟ وهل يَعتبر اليهودُ الإسرائيليون أنفسَهم قوميّةً؟ ألا يَعترفون، من خلال جميع مؤسّساتهم التمثيليّة، بـ «القوميّة اليهوديّة» فقط؟[٢]

٦ ـ من أجل الوصول إلى «حلّ» للصراع الإسرائيليّ ـ الفلسطينيّ، لا يتردّد سعيد لحظاتٍ، وإنْ قليلةً، في التخلّي عن شيءٍ من حقّ العودة وشيءٍ من ارتباط فلسطين بالوطن العربيّ. يقول بالحرف: «يتعيّن النظرُ في قانون العودة لليهود، وحقّ العودة للاجئين الفلسطينيين، وتشذيبهما معًا. ونحتاج إلى أن نحدّ، من حيث المدى والإقصائيّة، من فكرتيْن على السواء: فكرةِ إسرائيل الكبرى باعتبارها الأرضَ التي منحها اللهُ لليهود، وفكرةِ فلسطين باعتبارها أرضًا عربيّةً لا يمْكن أن تُعزلَ عن الوطن العربيّ.»[٣]

لكنْ كان بإمكان سعيد، مثلاً، أن يتأمّلَ طروحاتٍ أخرى، بدلاً من الانتقاص من حقّ العودة (غير القابل للتصرّف بالمناسبة!). ومن هذه الطروحات طرحُ «عروبةٍ جديدةٍ» يندرج اليهودُ وكلُّ الإثنيّات والأقليّات فيها على أساس المواطَنة والعدالة والمساواة، وعلى أنقاض أوهام التفوّق العنصريّ. والحقّ أنّ سعيدًا اقترب إلى حدّ ما من ذلك الطرح، وذلك حين قال عام ٢٠٠٠، ردّاً على سؤالٍ عن إمكانيّة عيش أقليّةٍ يهوديّةٍ بسلام في سياقٍ عربيّ عامّ:

«نعم، أعتقد أنّ ذلك قابلٌ للتنفيذ. يمْكن لأقليّةٍ أن تتعايش تمامًا كما بقيتْ أقليّاتٌ أخرى في العالم العربيّ... أودّ رؤيةَ نوعٍ من اندماج اليهود في نسيج مجتمعٍ أكبر، لديه قدرةٌ أكبرُ على البقاء رغم تشوّهات الدولة ـ الأمّة... إنّ تعريفي لاصطلاح Pan-Arab يشْمل المجموعاتِ الأخرى، بما فيها اليهودُ، ضمن إطارٍ عربيّ ـ إسلاميّ.»[٤]

ولعلّ هذا أن يكون موضوعًا لحوارٍ ثانٍ أطولَ مع الحبيب والمعلّم الكبير إدوارد، إذ يبدو لكليْنا أنْ لا أفقَ لفلسطين خارج العروبة... شرطَ ألاّ تكون عروبةً إقصائيّةً منغلقةً تأْسر المسلمين والمسيحيين والعلمانيين قبل أن تأسرَ اليهودَ!

جبلة (سوريا)

---

١ ـ سماح إدريس، جريدة **الأخبار**، ٢٠٠٨/١١/١٠.

٢ ـ عمر البرغوثي، تقديم ملفّ «الدولة الديمقراطيّة العلمانيّة،» في هذا العدد من الآداب، ص ٦١.

٣ ـ **الحياة**، ١٩٩٩/٢/١.

٤ ـ حوار مع أري شافيت. مذكور سابقًا.